«رسائل إلى روائي شاب» لماريو فارغاس يوسا:
الروائي أشبه بذلك الحيوان الخرافي الذي يلتهم نفسه بادئا من قدميه!

سعيد السوقايلي*

■ أخيرا وصلنا بريد جديد، بعد طول زمن منافسا بريد «ريلكه» صاحب «رسائل إلى شاعر شاب»، هذه الرسائل الجديدة هي من الروائي البيروفي الكبير: «ماريو فارغاس يوسا» الذي يختار هنا «أن يكتب عن الرواية بطريقة مختلفة عما كتبه كل النقاد، في تجربة فذة على شكل رسائل (وهمية إلى روائي شاب) يلتقط الزوايا الخفية في روايات نعرفها وأخرى لا نعرفها. خسر «يوسا» كرسي الرئاسة في بلاده وكسب القراء في كل أنحاء العالم. بهذه الكلمات يختم «يوسا» «رسائل إلى روائي شاب». وباعتبارها بريدا واصلا لتوه، فمن واجب إكرام الرسالة قراءتها. وفي ما يلي أهم مضامين الرسائل الإثنتي عشرة:

. الرسالة الأولى: قطع مكافئ للدودة الوحيدة

يستهل رسالته بالتساؤل عن الخطوات الأولى لكتابة الرواية، والقصص التي تبهر قارئيها مثلما فعل فوكنر، وهمنغواي، ومالرو، ودوس باسوس، وكامو، وسارتر.ثم يحدد الأسباب الأولى التي تمنع أي مبتدئ من مراسلة كبار الكتاب، منها الخجل، والرادع التشاؤمي الذي يحبط ميولهم الأدبية في بلدان لا يعنيها الأدب شيئا، ذلك الذي مفاده هو عدم تكرم أولئك بالرد عليه. وفي معرض حديثه عن الخطوات الأولى، يشير إلى أن المراسلة هي المغامرة الأولى ضمن البدايات، ثم الميل الأدبي كنقطة انطلاق ضرورية والممارسة الفعلية للكتابة عن طريق الانضباط والمثابرة والاستعداد المبكر لتخيل شخصيات ومواقف وحوادث مختلفة وكل هذا الاستعداد مرتبط بالتمرد والقلق على العالم العادي ومن ثم نسخ حيوات متخيلة لعالم افتراضي بحماسة كيخوتية، وخلق موقف راديكالي رافض ومواجه للسلطة أو المؤسسات أو المعتقدات السائدة. هدا القرار بالميل إلى الأدب يجب أن يتحول إلى عبودية يكرس فيها الكاتب نفسه كليا إلى المعبود، ويشبه ذلك بالدودة التي تقبع في أحشائه وتتغذى عليه، حتى تصبح حياته يعيشها لتلك الدودة/الكتابة الأدبية، تماما كما فعل توماس وولف معلم فوكنر و مؤلف روايتين طموحتين:

عن «الزمن و النهر» و«الملاك الناظرإلينا» حيث يقول: «نفذت الدودة إلى قلبي، وربضت ملتفة، تتغذى على دماغي، على روحي، على ذاكراتي، وإن الدودة ستتغذى، والضوء يشع، وانه لا يمكن لأي تسلية أو طعام أو شراب أو رحلات متعة أو نساء أن تطفئه». أما النبوغ والموهبة فلا يولدان بشكل مبكر، وإنما عبر سياق طويل من الانضباط والمثابرة. وبختم رسالته ينصح بقراءة مراسلات فلوبير إلى عشيقته لويز كولي (1850 ـ 1854)، حيث كتب «مدام بوفاري»، و«المدمن»، «للأمريكي وليام بوروز. تلك السيرة التي يروي فيها كيف حولته المخدرات إلى إنسان حر وعبد سعيد لإدمانه وهذا أشبه بالكتابة التي يدمن عليها.

الرسالة الثانية: الكاتوبليباس

«من أين تخرج القصص التي تقصها الروايات؟» سؤال لطالما أرق «يوسا»، ويجيب بأن الموضوعات التي تخطر على الروائيين هي قضية متأصلة من ينبوع تجربة من يبتكرها، أي الحياة المعيشة التي تسقي القصص المتخيلة حيث أن الروائي أشبه بالكاتوبليباس الذي يتغذى على نفسه، «ذلك الحيوان الخرافي الذي يظهر للقديس أنطوان في رواية فلوبير (إغواء القديس أنطوان)، والذي أعاد إبداعه بورخيس، فيما بعد، في مؤلفه «المرجع في مملكة الحيوان»، والكاتوبليباس هو مخلوق مستحيل يلتهم نفسه بنفسه، بادئا بقدميه». إن الروائي يبحث قي تجربته الحياتية عما يغذي قصصه وشخصياته وأحداثه، تماما مثل بروست الذي يعتبره كاتبا– كاتوبليباس حقيقيا، خاصة في «البحث عن الزمن المفقود» الذي هو عصارة تتقاطر من ذاكرته الملأى بتحولاته الحيوية على مستوى أسرته، ومشهده، وصداقته، وعلاقاته، وشهواته. ويسرد صاحب الرسائل أيضا الكثير من الأمثلة على هذه الظاهرة، خاصة لدى كتاب السير الذاتية، كبينتر وريستيف دي لابريتون صاحب «المونسنيور نيكولاس» وآخرين الذين صنفوا قوائم جرد مطولة لأمور عاشوها، وكائنات واقعية، كمادة أولية، نفخوا فيها من خيالهم الواسع وعرضوها إلى تحولات كثيرة بحرية تامة كتعبير عن التمرد الواقعي من أجل عالم بديل. ويختم رسالته بالتعريف بالكاتب الحقيقي الأصيل الذي يتعمد اختلاق قوة الإقناع بالرغم من خيال الرواية الذي يبقى مجرد كذبة مفتعلة على الواقع.

الرسالة الثالثة: القدرة على الإقناع

ويقدم لها مؤلفين كبيرين هما «موبي ديك» و«الكيخوتية» لكل من العملاقين ملفيل وثربانتس، تروي الرواية الأولى قصة ذئب بحر مهووس بحوت أبيض، يلاحقه عبر كل بحار العالم، والكيخوتية تروي مغامرات ومحن فارس نصف مجنون، يحاول أن يكرر، في سهول المانشا ، مآثر أبطال روايات الفروسية. ويتساءل لما قرأهما، كيف له أن يتعرف على العوالم الغنية والحاذقة الكامنة فيهما، وكيف عليه أن يفصل بين الموضوع والشكل فيهما، وأنى له ذلك، وهذا هو ناصية أصالتهما وأحقيتهما التي تبرز قوة الإقناع تلك التي لا تقاوم، ويضرب مثالا على ذلك رواية «المسخ» لفرانز كافكا، التي تحول غريغوري سامسا بحذافيره إلى صرصار، ذلك أن كافكا استطاع صياغتها بقوة إقناع عن طريق بعض الكلمات، وبعض الصمت، وبعض الكشف، وبعض التفاصيل، وترتيب معين للمعلومات، وخط سردي يفرض نفسه على القارئ، بتقديم قصة وهمية مستقلة عن العالم الواقعي، ومكتفية بذاتها، بحيث تجعل القارئ يعيش الحدث ويتقاسمه، ويشبه الأمر بنظرية برتولد بريخت الشهيرة حول التغريب في المسرح، حيث يكسر الوهم على المنصة ويذكر المتفرج بأن تلك كذبة واستعراض وليست حياة. وتبقى قوة الإقناع في الرواية تضييقا للمسافة الفاصلة بين الوهم والواقع، ومحو الحدود بينهما.

الرسالة الرابعة: الأسلوب

وفي هذه الرسالة يربط جودة الشكل الروائي بعنصر الأسلوب، الذي يعتمد فيه على الانتقاء الدقيق لمفردات اللغة وصياغتها، وترتيبها، مما يشكل عاملا حاسما في جعل القصص تمتلك قوة الإقناع، بالإضافة طبعا إلى عمق موضوع القصة، هذا الثنائي، سلامة اللغة وعمق الموضوع، يجب أن يكونا عملة موحدة من أجل تقديم عمل أفضل وأصيل، ومثال ذلك، مونولوج مولي بلوم في نهاية «أوليسيس» لجيمس جويس، ويشير بالمقابل إلى أن هناك نوعين من الروائيين الجيدين، منهم ثربانتيس، وستاندال وديكنز، وغارسيا ماركيز.....الذين كتبوا بأسلوب فائق السلامة وفق القواعد النحوية و الأسلوبية السائدة في عصرهم، وآخرون أمثال بلزاك وجويس، وبيو باروخا وسيلين، وكورتاثر وليثا ماليما الذين خرقوا تلك القواعد وكان أسلوبهم مليئاً بالأخطاء ومع ذلك نجحوا في تقديم روايات عميقة وجيدة الموضوع ؛ ويبرر ذلك بأن فعالية الكتابة الروائية لدى كل أولئك مرتبطة بخصيصتين، أولهما، تماسك الرواية الداخلي وثانيهما طابعهما كضرورة لازمة، أي أن الكلمات والشخصيات والأشياء والمواقف تشكل وحدة لا تنفصم، تحس معها أن الرواية لن تكتب إلا بهذه الطريقة كما هو الشأن لدى بورخيس وفوكنر واسحاق دينزين ذوي الأساليب المتباينة فيما بينهم بمعنى أن الأسلوب البورخيسي مثلا، وهو أحد أكثر الناثرين أصالة في اللغة الإسبانية، يتطابق ويتماسك مع الموضوعات التي يتناولها، كالأنظمة الفلسفية، والبيانات اللاهوتية، والأساطير و الرموز الأدبية والتاريخ الكوني داخل بوتقة واحدة برؤية أدبية سامية.

الرسالة الخامسة: الراوي المكان

وينتقل فيها إلى حصر وترتيب المواد التي تتألف منها الرواية وهي: أ- الراوي، ب- المكان، ج- الزمان، د- مستوى الواقع. بداية يصحح مفهوم يطال حتى أكبر الروائيين، وهو أن الروائي ليس هو المؤلف ذاته، حين يكتب سيرته الذاتية، إذ يبين أن الراوي كائن مصنوع من كلمات وليس من لحم وعظم وهو يعيش فقط في الرواية، بخلاف المؤلف الذي يعيش حياة واقعية خارج مؤلفه الخيالي، ثم يخلص بعدها إلى أنواع الراوي الثلاثة وهم: راو ـ شخصية في القصة بضمير المتكلم أو راو –عليم بكل شيء خارجي بضمير الغائب، أو راو ملتبس بضمير المخاطب، لا يعرف عنه إذا ما كان يروي من داخل العالم المروي، أو من خارجه، ويبقى الراويان الأولان تقليديين، أما الثالث فهو حديث العهد، فقط صنعته الرواية الحديثة، ويبرر كون ذلك الراوي الخارجي بضمير الغائب في عدة روايات، مثل «القلعة» لأنطوان دي سانت كروز أكزوبري، أو «عناقيد الغضب» لجون شتاينبك، أو بضمير المخاطب في «استعمال الزمن» لميشيل بوتور، أو «أورا» لكارلوس فوينتس.... إنه راو مختبئ مشكلا قفزات في الرؤية المكانية من الأنا إلى الهو خاصة في رواية فوكنر «بينما أرقد محتضرة» حيث هنا يكثر الرواة، ويتبدلون من شخصية إلى أخرى، بالرغم من بقاء الرؤية المكانية على حالها، وقد تتغير في أعمال أخرى، عند ثربانتس وفلوبير وملفيل، إن هذه النقلات المكانية للراوي أو الرواة لا تكون بطريقة عامة أو عبر سرد طويل بل تكون خاطفة وقصيرة، تغطيها بضع كلمات، انتقال من راو كلي إلى راو شخصية.

الرسالة السادسة: الزمن

يتحدث هنا عن الزمن الواقعي وزمن التخييل، ويعرض بدءا موجزا لنظريات الزمن لمفكرين ومبدعين كثيرين، فالزمن زمنان، زمن متسلسل (كرونولوجي) موضوعي واقعي نعيشه حياتيا، وآخر نفسي (سيكولوجي) يطول أو يقصر حسب الانفعالات بالحياة وحسب درجات الاستمتاع (لهو، لذة...) أو الانتظار والتألم والعزلة. والرواية تنشأ من الزمن النفسي هذا كقصة «حادث على جسر نهر البومة» لأمبيروس بيريس حيث يتم الحادث في لحظات سريعة جدا، إذ توضع أنشوطة الحبل حول عنق المحكوم عليه بالإعدام، وذلك بتعليقه على جسر النهر، وحوله جنود الحراسة، ينقطع الحبل في لحظة ويقع المحكوم عليه في الماء سابحا إلى الضفة الأخرى وسط طلقات الرصاص....ومع سرعة الحدث، يتسارع الزمن على إيقاع نفسي سريع، حيث مر الحدث خاطفا، دون وعي لتفاصيله، وزمن الرواية خاضع لاحتمالات ثلاثة بفضل الفعل النحوي:

1ـ تطابق زمن الراوي مع ما يروى.

2ـ رواية الراوي انطلاقا من الماضي أحداثا تجري في المستقبل أو الحاضر.

3ـ تموضع الراوي بين الحاضر والمستقبل ليروي أحداثا ماضوية قريبة أو بعيدة، ويدرج مثالا طريفا لأقصر وأروع قصة قصيرة، للغواتيمالي أوغوستو مونتيروس، وهي «الديناصور» التي تتألف من جملة واحدة «عندما استيقظ كان الديناصور لايزال هناك»، هنا ما يروى حدث في الماضي، المطلق البعيد «استيقظ» والراوي متموضع بين المستقبل والماضي، أي زمن المستقبل: زمن الراوي، زمن ماض بعيد: هو زمن ما يروى (استيقَّظ * لا يزال هناك). ويسترسل أيضا في تشريح هذه الظاهرة بحديثه على أن هناك أكثر من زمن في الرواية، أزمنة متعايشة، كرواية غونترغراس (طبل الصفيح)، ورواية سيمون بوفوار(جميع الرجال فانون)، وبورخيس في (آلة الزمن)، وأدولفو بيوي كاساريس في (الحبكة السماوية)، ويختم رسالته بأن هناك أزمنة ميتة، تنقل لنا معلومات وتعليقات من قبيل الحشوة، حيث تحدد الأزمنة الحية والأزمنة الميتة شكل الزمن الراوي أي النظام التسلسلي الكرونولوجي.

الرسالة السابعة: مستوى الواقع

وتبدأ بعرض مستويين قد يكونان متطابقين أو مختلفين، وهما اللذان يشكلان العلاقة التي تحدد التخيلات الروائية المختلفة. إنهما مستوى الراوي ومستوى المروي، ويبق هذا المستوى الواقعي خاضعا للتسلسل الزمني، حاضر وماض ومستقبل، هاهنا يتفرع الواقع إلى مستويات لا حصر لها، ولكن المؤلف يختار المستوين السابقين فقط، ويجعلهما على مستوى عالم «واقعي»، ومستوى عالم «فنتازي» (سحري، إعجازي، خرافي، أسطوري....). وهنا يمكن الاختلاف من الناحية الأخرى بين الراوي والمروي، ويمثل لذلك بالقصة السابقة أي «الديناصور»، حيث لا يمكن لحيوانات ما قبل التاريخ أن تحضر إلى واقعنا الآني الملموس. وهنا يصبح مستوى الواقع في ما يروى فنتازيا متخيلا يتناقض مع المستوى الواقعي للراوي الذي هو الإنسان، حيث يحول الراوي المتموضع في عالم موضوعي ديناصوري خيالي إلى واقع ملموس (الديناصور لا يزال هناك)، شأن هذه التقنية حاضر لدى الكثيرين من كتاب الأدب الفنتازي كبورخيس، وكورتاثار، وكالفينو، ورولفو، وبييردي ماندبارغ، وكافكا، وغارسيا ماركيز..... وبالمقابل يبقى أيضا مستوى الواقع الحقيقي ينزع إلى مستويات متباينة وعوالم موضوعية (عالم أشياء، وقائع، أشخاص) لدى همنغواي، وعوالم ذاتية (عالم دواخل الإنسان من انفعالات، وأحاسيس، وأحلام....) لدى فوكنر، وفرجينيا وولف، وغراهام غرين، ويشير على سبيل النقد أن «آلان روب غرييه في روايته، «الغيرة» التي هزت الأدب الفرنسي في الستينات ضمن حركة الرواية الجديدة، حيث حاول صاحبها في كتابه «من أجل الرواية الجديدة»، تخليص الرواية من التحليل السيكولوجي والذاتية والجوانية مركزا على السطحية والفيزيقية لهذا العالم الشيئي بكل أشيائه الحقيقية البادية، ومعتمدا على النظرة الحسية الموضوعية لراو مجهول وغير مرئي حيث يبقى قريبا من المستوى الواقعي الفعلي دون أن يستقر فيه بالكامل راسما مسافات تكاد تضيق.

الرسالة الثامنة: النقلات والقفزات النوعية

مرورا بالرؤى الثلاث التي أشار إليها سابقا، يذكر أنها تمر بنقلات تمكن الكاتب من ترتيب قصته، أي أن هناك نقلات مكانية، أو زمانية، أو في مستوى الواقع، خاصة في رواية القرن العشرين، ليس تبعا لتعدد الرواة وتحركهم في المكان وتحول ضمير الرواية من هو إلى أنا أو العكس كما هو الشأن في «بينما أرقد محتضرة» لفوكنر، أو «أوليسيس» لجويس، هذه النقلات المكانية والزمانية تؤثر سلبا أو إيجابا في قدرة الرواية على الإقناع حسب فعاليتها أو عدمها، حيت تظهر نظامية النتيجة أو فوضاها، أما القفزة الزمنية من المستوى الواقع إلى مستوى الفنتازيا، فتحدث عادة بالانتقال من الحاضر إلى المستقبل، كما يحدث في «ذئب البوادي» لهيرمان هيسه، عندما تظهر للراوي ـ الشخصية الأرواح الخالدة لمبدعي الماضي الكبار، حيث يغدو النقل أكثر تخييلية. وهذا النوع من القفزات التي تحول السرد الكامل في الرواية من المستوى الواقعي إلى المستوى الفنتازي هو قفزة نوعية، استعارها من الديالكتيك الهيغلي، القائل بأن التراكم الكمي يؤدي إلى قفزة نوعية (عندما يغلي الماء كليا يتحول الى بخار ويتحول إلى ثلج عند تبريده)، تماما كما حدث للمسكين غريغوري سامسا حين تحول إلى صرصار مريع، في رواية «المسخ» لكافكا، إنه التحول الفنتازي منذ الجملة الأولى في الرواية، وبعد أمثلة كثيرة من الروايات، يختم رسالته بأن نظرية الأدب الفنتازي طورها ناقد وباحث بلجيكي ـ فرنسي كبير هو روجيه كايوا Roger Caillois في مقدمة لكتاب «انطولوجيا الأدب الفنتازي» «Anthologie de Fantastique» يؤكد أن الأدب الفنتازي الحقيقي هو ما يحدث تلقائيا دون سابق تأمل، أو حتى دون أن يلحظ المؤلف نفسه ذلك التحول العجيب.

الرسالة التاسعة: العلبة الصينية

من وسائل الإقناع التي يستفيد منها الرواة «العلبة الصينية» أو «الدمية الروسية (ماتريوشكا)» تلك اللعبة الفلكلورية التي تتضمن أشكالا مماثلة لها وأصغر منها حجما، في متوالية تمتد أحيانا إلى ما هو متناه في الصغر، وهذا ما يحدث في الرواية، إذ تتولد عن القصة الرئيسية قصص فرعية، لتشكل كل تلك العناصر تحالفا وتكاملا ذا مفعول مختلط خاصة في رائعة الروائع «ألف ليلة وليلة»، لقد أصبح بناء العلب الصينية لجمل الحكايات العربية الشهيرة حيث ترجمت متعة أوروبا وبهجتها، انه بناء ميكانيكي في نواح كثيرة، يعتمد على دمج قصص ضمن قصص من خلال نقلات الراوي الزمانية والمكانية وفي مستوى الواقع، تماما كما يحدث في العلب الصينية الميكانيكية ويحدث أيضا هذا التوليد للقصص في «الكيخوتية» حين تتداخل القصة ـ الأم بالقصص البنات، خاصة في حكاية «الراعية تورالبا»، أو قد تكون مجرد كولاج أكثر مما هي علبة صينية كما في قصص «الفضولي السفيه» في نفس رواية «الكيخوتية»، فتقنية العلبة الصينية تعتمد على الانتقال من إحدى المواقع الكبرى (قصة ـ أم) إلى وقائع صغرى (قصة ـ إبنة) وهي نقلات متزامنة في المكان والزمان ومستوى الواقع، وخير مثال ثان هو رواية «الحياة القصيرة» لخوان كارلوس أونيتي، وتبقى التفاصيل والحكايات المضروبة كمثال وارد على متن هذه الرسالة.

* شاعر من المغرب

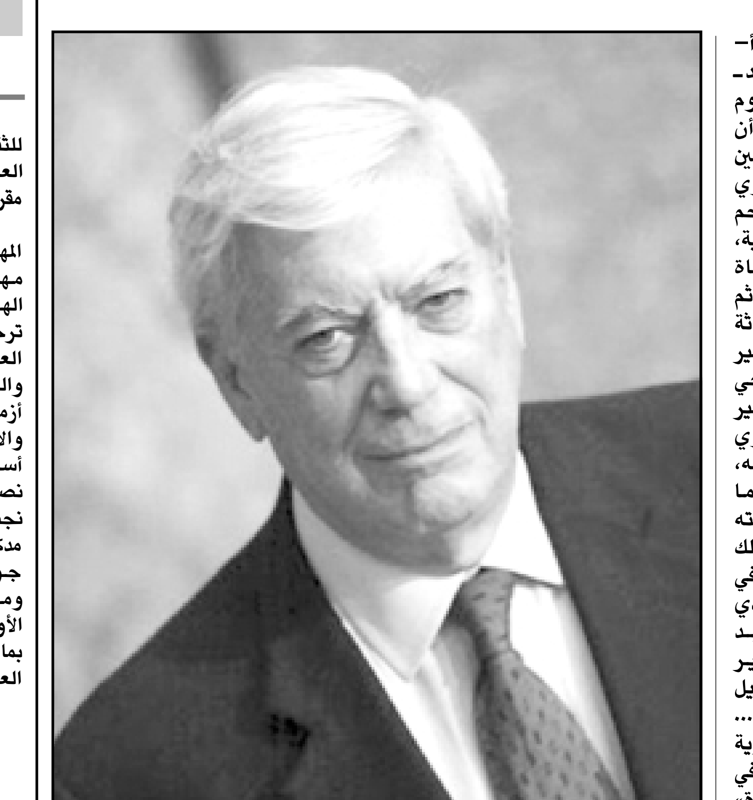

ماريو فارغاس يوسا

ندوة قاهرية عن اللغة العربية:
بين المتفائلين بانتشارها والخائفين من اندثارها!

القاهرة ـ «القدس العربي» ـ
من محمود قرني:

أقامت لجنة الدراسات الأدبية واللغوية بالمجلس الأعلى للثقافة ندوة موسعة على مدار يومين متصلين تحت عنوان «اللغة العربية وقضايا العصر» وذلك بحضور الدكتور أحمد درويش مقرر لجنة الدراسات الأدبية واللغوية.

وقد تضمن المؤتمر ثماني جلسات تناولت عددا من المحاور المهمة مثل اللغة العربية والعلوم الحديثة، اللغة العربية بين مهددات الفناء ومقومات البقاء، الأداء اللغوي لدى مذيعي الهواء، اللغة وعصر المعلومات، اللهجات العربية ومشكلات ترجمتها، اللغة العربية والتعليم، التراث الفكري والثقافي للغة العربية، حضور المعجم العربي في اللغة الاسبانية، تعليم الطب واللغة العربية، التحديات التي تواجه اللغة العربية، أزمة ترجمة المصطلح السياسي والاقتصادي والتكنولوجي والاعلامي والأدبي، وقد شارك في المؤتمر عدد وافر من أساتذة الجامعة والنقاد والإعلاميين بينهم الدكتور حسين نصار، عبدالرحمن رشاد، نبيل علي، جمال عبدالناصر، سامي نجيب، محمد نجيب التلاوي، مجدي توفيق، سعيد بحيري، علي مدكور، محمد أبو الغار، محمد عبدالمطلب، محمود مكي، جوزين جودت، عزة هيكل، سامح كريم، إيناس جوهر، طاهر أبو زيد، ومصطفى عبدالله، وسوف نحاول هنا إلقاء الضوء على أهم الأوراق التي تعرض لها مؤتمر «اللغة العربية وقضايا العصر» بما تضمنته من نقاش لأهم الاشكاليات التي تواجه اللغة العربية.

اللغة بين مقومات البقاء ومهددات الفناء

في هذا السياق وتحت هذا العنوان قدم المؤتمر عددا من الأوراق وكان من بينها تلك الورقة التي قدمتها الدكتورة أميمة جادو تحت عنوان «العربية في مواجهة بعض قضايا العصر العولمي، أدب المقاومة نموذجا» وتتعرض الورقة بالتحليل لبعض نماذج أدب المقاومة في مواجهة بعض قضايا العصر العولمي التي تمثل بحد ذاتها تحديات متجددة ومستمرة، هدفها تقريب المواطن العربي بمحاولات النيل من موروثه الديني والمعتقدي الإسلامي المقدس، وبمحاولات طمس هويته الثقافية والحضارية، أو إزاحتها من كيانه العروبي ليس فقط بالنابالم والمدافع الرشاشة واستلاب بعض الشعوب العربية لكيانها، وتدلل الباحثة على ذلك بنماذج من فلسطين والعراق ولبنان، وتضيف تلك المحاولات التي تراها استلابا لأبناء هذه الشعوب واجتذابهم وقولبتهم وعولمتهم في القالب الأمريكي الذي يرسمه المشروع الصهيوني التوسعي المعروف.

وتقول الدكتور جادو: إن من بعض قضايا العصر وتحديات العولمة ما يأتي على الصعيد السياسي الدولي مثل الحروب واستلاب الأوطان لحريتها وما يأتي على الصعيد المحلي العربي مثل ديكتاتورية السلطة الحاكمة التي تأبى الحروب خشية الدمار مؤثرة سلام الشعوب أو استسلامها، وتنعكس في انعدام الديمقراطية ومصادرة الحريات وتكميم الأفواه وتسييس الأحزاب. وتضيف جادو: تأتي الظاهرة ايضا على الصعيد الاجتماعي وتتجلى في ضرب جذور الأسرة العربية وإحلال التفرقة محل الوحدة، واستلاب وعي الشباب وملء عقولهم بالثقافة الاستهلاكية وإعلاء قيم المال وسطوة ثقافة الجنس وإشعال الشهوات والرغبات المحرمة تحت قناع الحرية وعدم التكريس للمعتقد والموروث والتابوهات باعتبارها من الرجعية والتخلف، وتناولت الباحثة صورا لبعض النصوص التي رأت انها من أدب المقاومة مثل بعض قصائد أمل دنقل والمغربي أبو بكر بناني والفلسطيني إبراهيم طوقان وعبدالرحيم محمود وسميح القاسم ومحمود درويش ومحمود خليفة غانم وفاروق جويدة وفاروق شوشة.

أما الإذاعية إيناس جوهر فقدمت ورقة بعنوان «اللغة العربية واللهجات، صراع أم تفاعل في عصر الفضائيات» وتقول جوهر: لم يعد مقبولا أن تظل النظرة الى اللهجات العربية نظرة دونية، وأن تبقى اللهجات العربية على اهميتها بعيدة عن مناهج تدريس اللغة العربية في الكليات المتخصصة والأقسام المختصة بدراسة اللغة العربية وآدابها بالجامعات العربية المتعددة، وتقول جوهر انه ليس من الانصاف أن تنأى الدراسات العليا ورسائل الماجستير والدكتوراه عن الولوج الى هذه اللهجات والاقتراب منها والإفادة في توسعة اللغة بروافد منها، وتعتبر إيناس جوهر أن هذا الموقف السلبي من اللهجات يتجاهل عدة حقائق من أهمها ان اللهجات العربية هي المنابع الحقيقية للغة العربية الفصحى، وأن اللغة بطبيعتها أصوات اتفق على معانيها، فهي بذلك منطوقة تعتمد اساسا على المشافهة، ولذلك فإن اللهجات ـ حسب جوهر ـ التي يصفونها بأنها عالمية، يتفنن المتحدثون بها في النطق والتعامل بألفاظها وتبادل الفهم، وقضاء مصالحهم من خلالها، وتضيف لتلك الحقائق أن قدرة اللهجات على استيعاب أشق المعاني الحياتية والتعبير عنها بالدقة والاختصار والرقة ايضا تجعل من هذه اللهجات لغة حياة، وتضيف: ان الحصون التي وضعها علماء النحو والبلاغة ليحموا اللغة الفصيحة من اللهجات، وكذلك الضوابط الصارمة في حركات الإعراب والنحو والصرف لم تتمكن ـ على صرامتها ـ من حماية الدارسين من الخطأ والتجاوز والتقصير، كذلك قدم كل من الدكتور جمال عبدالناصر والدكتور هاني السياسي بحثا مشتركا تحت عنوان اللهجات العربية ومشكلات ترجمتها.

يتناول البحث التفاعل اللغوي الذي تشهده الثقافات على مختلف ألوانها وأجناسها ومواقعها الجغرافية، وهو التفاعل الذي يرى الباحثان أنه يمتد من مستوى الإطار الاجتماعي الى الفرد وبالعكس لينتج حزمة من المعاني والدلالات، ويقول البحث ان هذا التفاعل ينطوي على عدة مستويات لسانية تختلف تبعا لاختلاف طبيعة البيئة الثقافية والبنية الأنثروبولوجية بكل منطقة أو إقليم أو قطر أو قومية، ويرى الباحثان أن هذا يتجلى بشكل كبير في منطقتنا العربية التي تزخر في مجال اللسانيات بعدد كبير من اللهجات، تعد كل منها مستوى من مستويات اللغة العربية، بل وتمثل كل واحدة شكلا من أشكال التطور اللغوي على مستوى الواقع المعيشي محليا وإقليميا، دون أن يضع ذلك عائقا أمام عمليات التلاقي والتلاقح المستمرة بين دول المنطقة، ذلك لأن الاختلافات الظاهرية بين تلك اللهجات لا تعدو أن تكون اختلافات طفيفة في بعض مستويات الصوت والصرف والنحو والدلالة، رغم أن بعضا من هذه الاختلافات ينجم عن الاختلاط بالأجناس الأخرى غير العربية، غير أن الباحثين يريان أن مستويات اللغة وصنوف اللهجات قد تشكل حجر عثرة أمام المترجم الناقل لنص عربي أيا كانت طبيعته أو لونه أو اتجاهه الى لغة أجنبية أخرى، هذا من ناحية، كما قد تربك نفس المترجم لدى تصديه لنص أجنبي بغية نقله الى مستوى من مستويات العربية، مثل مستوى لغة الإعراب في البادية مثلا أو مستوى لغة المستقرين في الحضر، في شبه الجزيرة العربية أو في الشام أو في الشمال الافريقي أو في المغرب العربي.

هل تموت اللغة العربية؟!

أما من حيث علاقة اللغة العربية بالعلوم الحديثة ومدى قدرتها على استيعاب معطيات الحداثة فقد شهد الملتقى عدة أوراق ومنها تلك الورقة التي قدمها الدكتور حسين نصار التي تناولت ما رآه ثلاثة مآزق مصيرية واجهتها اللغة العربية أولها ما وقع عندما أخرج الإسلام تلك اللغة من جاهلية غنية كل الغنى في الابداع الأدبي، فقير كل الفقر ـ بل مملقة ـ حسب تعبير نصار، في الانتاج العلمي، ثم جاء القرنان الثاني والثالث الهجريان فألقياها في بحر زاخر من الحضارات والعلوم والفلسفات والفنون وكل صنوف المعرفة، التي ابتكرتها الأمم المتاخمة للجزيرة العربية كالفرس والروم والسريان والمصريين، والأمم البعيدة عنها كالهنود والصينيين والأتراك والبربر وشعوب أسبانيا.

أما المأزق الثاني الذي يرصده الدكتور حسين نصار فجاء عندما أخذ العرب يفقدون حسمهم بأنفسهم، ويستبد بالسلطة فيهم ذوو الأصول غير العربية، إلى أن انفرد بها المماليك فالعثمانيون الذين أزاحوا العربية عن دست الحكم وفرضوا التركية لغة رسمية على البلاد، فأخذت العربية في الاعتلال والضمور، حتى على ألسنة العلماء وأقلام المؤلفين.

أما المأزق الثالث والحالي الذي يرصده نصار ويراه أخطرها إذ تؤمن به جبهة عربية خالصة، ربما وصلت في تخصصها العلمي إلى درجة رفيعة، ولكنها ضيقت النظر غاية التضييق، حيث أهملت الاعتبارات الوطنية والقومية، فاللغة ـ حسب نصار ـ من أهم مقومات وحدة الشعوب، والعربية من المقومات الرئيسية للوجود العربي، ولعلها أقوى الروابط التي تجمع بين الأقطار العربية، ويضيف نصار أن الإصرار على العربية إصرار على اثبات الوجود العربي، على تيسير التنسيق او التضامن أو الوحدة العربية، فإن تعذرت الوحدة السياسية بين الأقطار العربية، فإن الوحدة اللغوية والثقافية هي المسعى الضروري، ولن تتم هذه الوحدة إلا بالمحافظة على اللغة العربية، واستخدامها في كل مجال، لأن ذلك يؤدي الى وحدة الشعور والفكر والاتجاه.

أما الدكتور رشدي طعيمة فقد قدم ورقة لا تبتعد كثيرا عن ورقة الدكتور حسين نصار، وهي ورقة مستوحاة من عنوان كتاب «ديفيد كريستال»، «موت اللغة» ويطرح المؤلف فيها تساؤلات عدة منها «ماذا يقصد بموت اللغة، لماذا ينبغي أن نهتم بذلك، لماذا تموت اللغات، من أين نبدأ، وماذا يمكن عمله؟ وفي ضوء ما ورد بالكتاب من أفكار يقول طعيمة إنه تمت دراسة واقع اللغة العربية سواء من حيث ما يواجهها من تحديات أو تعاني منه من أزمات وقد استعرضت الدراسة ما ورد في بعض التقارير الدولية المهمة عن اللغة العربية ومنها تقرير اليونسكو حول انقراض اللغات، وتقرير التنمية الانسانية العربية سنة 2003 حول أزمات اللغة العربية سواء من حيث الأداء اللغوي العام أو من حيث التعليم وكذلك عرضنا للتقرير الذي أعدته مؤسسة الفكر العربي بعنوان انقاذ اللغة العربية.

الإعلام وتاريخ من الركاكة

أما في محور اللغة العربية والإعلام فقدم المؤتمر عددا من الأوراق كان من بينها تلك الورقة التي قدمها «فتحي الملا» تحت عنوان اللغة العربية والإعلام، ويشير الملا في بداية ورقته الى أن الإعلام بات يقع في صدارة عصر العولمة وركيزة من ركائزها، ويقول: إذا كانت العولمة مثلت في جانب منها صراع الحضارات وفي شقها الآخر حوار الحضارات، فإن اللغة العربية تبرز أهميتها في كلا الجانبين فإذا كانت حوارا فالعربية هي لسانها، والإعلام في كلا الجانبين هو أداة اتصال بين الناطقين بالعربية على امتداد الساحة الكونية التي غدت قرية كونية صغيرة، لقد أبدى هنتنغتون صاحب كتاب صدام الحضارات دهشة من أن الأرقام تشير الى تزايد نمو العربية والمندارينية «لغة أهل الصين» على حساب انتشار اللغة الانجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها في حين هبطت الانجليزية على مستوى العام من 8.9 % عام 1958 إلى 6.7 % عام 1992 بينما زادت نسبة انتشار العربية من 7.2 % عام 1958 الى 5.3 % عام 1992.

ويتساءل فتحي الملا عن دور الإعلام في نشر اللغة العربية والنهوض بها ويقول: ان هناك جانبا مضيئا يتمثل فيما تقدمه إذاعة القرآن الكريم من اهتمام بالفصحى وإن كان بعض الشيوخ المتحدثين يخطئ في قواعد اللغة، وكذلك تقديم نشرات الأخبار باللغة الفصحى التي يفهمها العامة، كذلك يشيد الكاتب ببعض البرامج التي تخدم على انتشار العربية الصحيحة، وينتقد في الوقت نفسه البرامج التي تأخذ لنفسها أسماء أجنبية أو تستعمل العامية في ركاكة مفرطة.

أما الدكتور محمود علي مكي فقدم ورقة بعنوان «مجمع اللغة العربية ولغة الصحافة» أكد فيها على فكرة استهداف الأمة العربية وأشار كذلك الى أحداث 11 ايلول/ سبتمبر 2001، وصراع الحضارات كخلفية أساسية لتلك الأحداث، ويقول مكي: انها حملة يروج لها المفكرون الغربيون وهي تتركز على مهاجمة الإسلام والثقافة العربية، وكان من أمضى أسلحتها محاربة اللغة العربية بالوسيلتين اللتين استخدمتا من قبل وهما الترويج للغة الانكليزية، والدعوة الى ان تستبدل بلغتنا العربية الفصيحة.

ويشير مكي الى أن موقف مجمع اللغة العربية كان دائما يدعو الى مواجهة تلك الحملة المشبوهة، ويذكر أن من أهم توصيات المجمع في مؤتمراته السنوية التي تعقد بمشاركة المجامع العربية، الدعوة الى تنقية لغة الإعلام والتمسك بعربية سليمة صحيحة تواكب تطور مجتمعاتنا الحديثة، عبر لغة لا يعسر فهمها على عامة الشعب.

أما الدكتور أحمد درويش الذي قدم ورقة عن تجارب اللغات الأخرى في التطوير فقد أشار الى أن كل لغة تحتاج الى تجارب اللغات الأخرى في مراحل مسيرتها المختلفة، تصعيدا أو رصدا لمراحل التطور، ودفاعا عن النفس ضد أخطار الترهل والضعف والشيخوخة، ومواءمة المستجدات من حولها، وتكاد هذه الخطوات وغيرها من الخطوات المتصلة بالمحافظة على مسيرة اللغات، ومراعاة تطورها، تشكل في ذاتها مناهج حول «حياة اللغات» ينبغي الإفادة منها في تجاوز الأزمات وتحقيق الطموحات.

قص
الفراغ

عبداللطيف الزكري*

■ كنت أتكئ على الأريكة، ولم يكن في بالي شيء، أي شيء، كنت فارغا من داخلي لا أشعر باحساس. وأنا على ذلك الحال راودتني فكرة غريبة: أن أخرج من الدار وأسيح في الأرض، بحثا عن شيء ما، أي شيء، ألتهي به، ولا أبقى فارغا. وخرجت من الدار على أمل لقيا مفترضة، وضربت برجلي في الأرض، وأنا أشرئب الى أي شيء.

ظهر في الأفق شيء ما، كان صغيرا ومعتما، في شكل كرة أو دائرة على هيئة حديدية. كان هذا الشيء جامدا، وما حركني. ما أملت خيرا في شيء جامد. كنت أبحث عن شيء تدب فيه الحركة، شيء يغوي ويثير. وحين وصلت الى تخم الأفق حيث يوجد ذاك الشيء الحديدي الجامد لم أجد شيئا. وتعجبت، وحرت، وصرت أفكر في حقيقة ما رأيت، فقد رأيت ما رأيت، ولا يمكنني أن أتخيل شيئا بجسم ولم أره، وكان هذا منتهى الخبل.

عدت الى الدار، خالي الوفاض، بخفي حنين، ولم يكن في الدار ما يمكن أن ينشغل به المرء غير جريدة قديمة وراديو صغير، لا يلقي سوى بأثير الاذاعات المحلية، وتوجهت اليهما. أخذت الجريدة بين يدي وصرت أتصفحها كأنها جديدة: أقرأ العناوين وأتدبر فيها وكأنها شيء هام جدا. وما كانت بي حاجة لأمثل هذا الدور المخبول سوى أني فاقد التوازن. الفراغ يخلق الحمق، والحمق شيء صعب، والأصعب من ذلك أن تعاني الحمق وأنت بكامل قواك العقلية. وانه لحمق أن يكون الفراغ ضاربا بسياجه على كل شيء. بعد أن فرغت من الجريدة، وقد اسغرقتني مدة هامة، توجهت الى الراديو، صرت أضبط مؤشر الاذاعات على مواقع بعينها، تنبعث منها أقوال المذيعين، استمتعت لحظة بضبط الاذاعات، ثم أحسست بالاختناق. كان احساسا فظيعا، كأن أحدا ينهي حياتك بقبضة من حديد، شيء فظيع لكنه حقيقي ومقرف. وفكرت أن ثمة دائما ما يمكن عمله، ولا يمكن للفراغ أن يكون تاما وكاملا، فلا فراغ في الكون، وما يبدو كذلك هو وهم تحول الى حقيقة بفعل ما يشعر به البشر من أحاسيس اللامبالاة تجاه حيوية الكون!

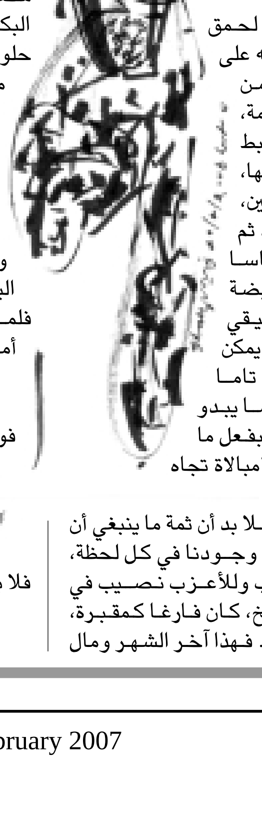

أملت للحظة أن أجد ما أفعله، فلا بد أن ثمة ما ينبغي أن نفعله، ما ينبغي أن نؤسس به وجودنا في كل لحظة، وعولت على المطبخ، فأنا اعزب وللأعزب نصيب في المطبخ، لم أجد أي شيء في المطبخ، كان فارغا كمقبرة، موحشا كغابة، مقرفا كمزبلة... فهذا آخر الشهر ومال مرتبي قد فرغ من جيوبي، وأنا أدور في الفراغ، لا ألوي على شيء، لكنني مع ذلك أبحث عما أفعله.

في اليوم الموالي فكرت أن أخرج من جديد، فهذا يوم آخر، غير يوم البارحة، واذا كنت لم أوفق البارحة في ايجاد شيء، فلعل ذلك بسبب ارتخائي. أما اليوم، فأنا مفعم بالحيوية، على الرغم من الجوع الذي يرغمني على البكاء. خرجت، فلاقاني متسول، أعطيته بضع كلمات حلوة، وتابعت المسير. اذّاك بدا لي في الأفق شيء كروي متوسط الحجم يدور دورات بطيئة، كأنما هو آلة لتحريك الكون. صرت أحدق في ذاك الشيء، وأنا كلي أمل في أن أجد فيه بغيتي. ووصلت اليه وأخذته بين يدي، كان أسود كالليل، رخوا كعجينة، جعلته بين يدي، كورته فتكور، كان شبيها بالفراغ من حولي، دائريا كأزمتي المالية. ألقيت به في الوجود، لعنته وسببته. لماذا خدعني كالبارحة؟ ألا يوجد فاصل بين اليوم والبارحة، بين الحاضر والماضي؟ بلى يوجد، فلماذا هو هذا الشيء فارغ دائما. وعدت الى الدار وكلي أمل في أن أجد ما ألهي به نفسي، حتى يستبد بي النوم.

شعرت، في الدار، بشدة الجوع، ذهبت الى المطبخ، فوجدت حفنة من الفاصولياء صالحة للطبخ، لكن قنينة الغاز فارغة، فكيف أطبخها؟بعد ذلك غشيني النوم، فارتحت وارتخيت.

في الصباح، نهضت من النوم، ودوار يلفني، بيد أني كنت قد قررت بأن أذبح الفراغ كخروف، فلا بد من فعل شيء، أي شيء.

* كاتب من المغرب

فضاءات ثقافية

كتّاب يوقّعون كتبهم في «سيتي كافيه» بعد تأجيل معرض الكتاب

بيروت ـ «القدس العربي»:

أقامت «دار نلسن للنشر» تواقيع كتب لعدد من كتّابها في مقهى «سيتي كافيه» في أحد شوارع الحمراء. ومن الكتب الموقّعة «في محاولة مني» للشاعرة صباح زوين و«نملة تنوء بحملها سماء تميد» للشاعر حاكم مردان، و«العراق غزواً واحتلالاً» للكاتب يوسف حميد عوض الذي يعرض فيه شهادات شبه قانونية حول الاحتلال الامريكي للعراق وإعدام صدّام حسين، والتي كان نشر معظمها في صحيفة «النهار» ضمن صفحة «قضايا»، و«أحبك أميركا أنا لا أحبك» للكاتب زياد كاج الذي يتطرق الى موضوعي السياسة الامريكية المكروهة والثقافة الامريكية المحببة لديه، و«هشام شرابي صحافياً» للكاتب والصحافي جان داية، وفيه يتطرق الى المقالات الصحافية التي نشرها شرابي باسم مستعار.

الجدير ذكره أن مقهى «سيتي كافيه» الذي تزيّن جدرانه لوحاتٌ تشكيلية، والذي يُعدُّ أحد المقاهي الثقافية العريقة في بيروت، كان استضاف قبل نحو شهر عدداً من الكتّاب الذين نشروا كتبهم في «دار رياض الريس للكتب والنشر» في حفلات تواقيع شملت بالاضافة الى الريس كلاً من فواز طرابلسي، نصري الصايغ، مي منسّى وآخرين.

ويأتي هذا التدبير، أي توقيع الكتب في المقاهي الثقافية والقاعات والصالونات الأدبية، بعد قرار النادي الثقافي العربي تأجيل «معرض الكتاب العربي والدولي» الذي كان من المفترض إقامته في منتصف شهر كانون الأول (ديسمبر) المنصرم الى موعد لم يُحدد بعد.

منهج قياس قوة الدول واحتمالات تطور الصراع العربي ـ الاسرائيلي

■ بيروت ـ «القدس العربي»: صدر حديثا عن مركز دراسات الوحدة العربية كتاب «منهج قياس قوة الدول واحتمالات تطور الصراع العربي ـ الاسرائيلي» للدكتور جمال زهران.

وجاء في كلمة الغلاف:

«في ضوء مجموعة التحولات التي شهدها النظام الدولي في حقبة التسعينيات، وتداعيات ذلك على المنطقة العربية والصراع العربي ـ الاسرائيلي، فان موضوع هذه الدراسة يتحدد في تحليل حالة توازن القوى الاقليمية وانعكاساتها على تطور الصراع العربي ـ الاسرائيلي. وذلك، باعتبار ان هذا الصراع هو الصراع المركزي الذي واجه الامة العربية طوال اكثر من خمسين عاما ماضية، وهو مرشح للاستمرار في المستقبل المنظور على الاقل. بعبارة اخرى، ان موضوع هذه الدراسة يتركز على طبيعة العلاقة بين توازن القوى السائد على المستوى الاقليمي، واحتمالات تسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي او تصاعده، والاتجاه نحو تحالفات جديدة ام لا.

ويتطلب ذلك قياسا على قوة الاطراف الفاعلة للوصول الى حالة التوازن السائدة، الامر الذي يساعد في بناء تصورات لانماط التحالفات في سياق الصراع العربي ـ الاسرائيلي».

يقع الكتاب في 240 صفحة.